

ذكرى الاستشراف في الشعر الجاهلي

أ.د. عواد كاظم لفته

الباحثة لينا خالد عبد الواحد

جامعة ذي قار - كلية الآداب - قسم اللغة العربية

ملخص

ينطلق البحث من مقولة أساسية مفادها أن مرحلة الشباب تمثل أجمل المراحل العمرية التي يستذكرها الإنسان في مرحلة الشيخوخة وبما أن الشاعر مسكون بذاكرة تتفوق على جميع البشر، إذ يتمكن بوساطتها من استرجاع التفاصيل الصغيرة والدقيقة بما في ذلك مراحل عمره المختلفة منها (مرحلة الشباب)، فيظل في شوق متجدد وتوق دائم إلى تلك المرحلة التي اقل نجمها، فلم يجد سبباً إليها سوى استعادة ذكرياتها، من هنا يرصد تجليات ذكرى الاستشراف عند شعراء العصر الجاهلي فيتوقف عند أبرز أسبابها، ثم يحاول بيان مدى تأثيرها على نفسية الشعراء في الوقت ذاته.

Summary

The research stems from a basic saying that the stage of youth represents the most beautiful stage of life that a person remembers in the stage of young, and since the post is haunted by a memory that surpasses all human beings, as he is able through it to retrieve the small and accurate details, including the different stages of his life, including (the stage of young), and he remains In a renewed longing and constant longing for that stage whose star has fallen, he found no way to it except to recover its memories.

From here he monitors the manifestations of foresight among the poets of the pre-Islamic era.

مقدمة

تمر الذات الإنسانية بتحويلات زمنية يكون البناء البيولوجي دليلاً عليها، وقد اتخذت تلك التحويلات سمات مختلفة تبدأ من الطفولة وتنتهي بالكهولة مروراً بالفتوة والشباب والشيب، ويمكن لكل ثنائيتين ان تتعكسان دلاليًا، وتتضادان معنويًا، ومن تلك الثنائيات (الشباب والشباب) التي تظهر بصورة جلية في الشعر الجاهلي حيث حظيت بحضور بارز في افتتاح مقدمات القصائد الجاهلية، وقد شكلت هاجساً لدى الشاعر العربي القديم، وما تعتريه من معان لها اثر في النفس الانسانية، حيث يجد نفسه ازاء مرحلة انتقالية من القوة والنشاط والحيوية الى الضعف والعجز والوهن ((ولهذا يجد الانسان نفسه في هذه المرحلة يجتر ذكرياته ويتشبث بماضيه، فيصبح نهبا لا حلام اليقظة التي لا يجد غيرها ميدانا لتحقيق الذات

وتعويض ما فات ، فنجده يشيد بالماضي وبما حققه ايام شبابه ، ولهذا نراه كثيرا ما يبكي هذا الشباب الغارب الذي كان فيه اشد قوة وقدرة على الفعل ((⁽¹⁾).

وقد صور القرآن الكريم هذا التحول في قوله تعالى: (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)⁽²⁾.

لقد بكى الشعراء الجاهليين شبابهم الاقل ، حيث قال ابو عمرو بن العلاء ((ما بكت العرب شيئا ما بكت على الشباب وما بلغت به ما يستحقه))⁽³⁾، واخذوا يبثون شكواهم واحزانهم من الشيب في ثنايا قصائدهم لان ((العمل الادبي هو تعبير رمزي عن هذه الاحاسيس الداخلية العميقة))⁽⁴⁾، لتكون باعنا نفسيا يقفون به على اعتاب الماضي المحفور في الذاكرة ، جاعلين من الشباب ذكرى تلبى رغباتهم المكبوتة ومعادلاً وجودياً يحقق امنيات الذات، والتغلب على الشعور بالنقص الذي تركته اثار الشيخوخة في نفوسهم، فاخذوا يرسمونها ويبثون الحياة فيها لتكون ضمادا لجراحهم وتعويضاً عما فاتهم، ومنفسا عن انفسهم خلجات الحزن، فكان الارتباط الزمني بين التحولات الجسمانية والزمن ارتباطاً يقوم على تحقيق الزمن شيئاً فشيئاً، وفي ذلك التحقيق انما يتحول الزمن إلى خزانة لأفعال الذات، وذاكرة تستدر كلما حان وقت التذكر، وتختلف ذاكرة الشباب التي تستدعي في موضوعاتها إذ قد تكون خزيناً ذاكراتياً لقيم القوة والنشاط أو الفتوة أو الفروسية والبطولة أو الخمرة والمتعة أو المرأة وما يتعلق بها أو موضوعات أخرى.

لقد مثل الشيب صراع الانسان مع الزمن ، فيراه احد عوامل عالم التغيير التي تسلبه رموز الخصب الباعثة للحياة ، فيلجأ الى سجل الماضي عن طريق الحفر في الذاكرة ليوافق العجز التام باستعادة قوة الشباب⁽⁵⁾، إذ يحاول الشاعر الجاهلي أن يحدد اطاراً زمنياً للذكرى:

أَكُنْتُ شَبَابِي فَأَفْنَيْتُهُ	وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ ذُهُورِ ذُهُورِ
ثَلَاثَةَ أَهْلِيْنَ صَاحِبَيْهُمْ	فَبَادُوا وَأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرًا
قَلِيلَ الطَّعَامِ عَسِيرَ الْقِيَامِ	قَدْ تَرَكَ الدَّهْرُ خَطْوِي قَصِيرًا
أَبَيْتُ أَرَاعِي نُجُومَ السَّمَاءِ	أَقْلَبُ أَمْرِي بَطُونًا ظُهُورًا ⁽⁶⁾

أَقْلَبُ أَمْرِي بَطُونًا ظُهُورًا⁽⁶⁾

إنّ استقراء النص يشي بأن الذكرى مهيمنة على بنيتها، وان ماضوية الزمن جعلت منه حدثاً سيرياً حياتياً فجاء الفعل (اصبحت) ليحيل على انقطاع زمني بين سيرة ماضية وسيرة آنية ومستقبلية ، ومن ثم يحاول الشاعر أن يجسد هذا التحول بوساطة بث لوازم الصورة الجديدة للتحول (تحول الشخصين إلى أربعة، والشخص إلى شخصين، والسماع والمشي)، وكل هذه اللوازم الصورية تحيل على نقائضها، فهي صفات الشباب في (حدة البصر والسماع والمشي)، مما يعني أن هذه الصفات تستذكر بوساطة أحداثها.

وقد يجعل الشاعر الجاهلي من ذاته آخر ينا عنه بعيداً ويستميل ذاكرة :

أَصْبَحَ مِنِّي الشَّبَابُ قَدْ حَسَرَ
وَدَعَانَا قَبْلَ أَنْ لَمَّا قَضَى مِنْ جَمَاعِنَا وَطَرَا
نُودِعَهُ

ها أَنَا ذَا أَمَلِ الخُلُودِ وَقَدْ
أَبَا امْرِئِ القَيْسِ هَلْ سَمِعْتَ بِهِ
أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلاحَ وَلَا
وَالذَّنْبُ أَحْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ
مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَسْرُ بِهَا
أَدْرَكَ عَقْلِي وَمَوْلِدِي حُجْرَا
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذَا عُمْرَا
أَمَلِكُ رَأْسِ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيحَ وَالْمَطْرَا
أَصْبَحْتُ شَيْخاً أَعَالِجُ الكِبَرَا(1)

جعل الشاعر الجاهلي مرحلة الشباب ذاكرة منغلقة على زمنها إذ حدد الشاعر موقعه الزمني (زمن الخلود) وذكره (ثوى عصرا) وما بين الزمنين ذاتين، إذ تستذكر الذات الثانية ذات الخلود سيرة الذات الأولى (ذات الشباب) وجاء زمن الاستنكار قبل توديع الذات لذاتها، فالذاكرة تلمح إلى قيمة القوة في سيرة الذات الأولى وتجعل من الذات الثانية فاعلاً يعيش على أنقاض ذاته الأولى ذاكراتياً.

بينما نجد حلول المشيب وما يسبب من جروح غائرة في قلب الشاعر يجعله يستدعي ما امضاه في فتوته وشبابه(2)، لأنها ((من اجمل الأشياء التي اختزنتها ذاكرة الشعراء حول الماضي : زمانا ومكانا فكانت صورتها (مرحلة الفتوة والشباب) سرعان ما تعن على بالهم ويتذكرونها كلما داعب شدو الحمام اسماعهم او هبت ريح الصبا محرقة ما في ذاكرتهم من ذكريات عاشوها ايام شبابهم))(3). فنجد الشاعر الجاهلي يصنع من الزمن إنساناً يلاحقه لكن لا يستطيع الهروب منه:

نَزَلَ المشيبُ بِوَفْدِهِ لَا مَرْحَبَا
ضَيْفٌ بِغَيْضٍ لَا أَرَى لِي عَصْرَةَ
بُدِلْتُ بِالْعَيْشِ اللَّذِيذِ وَنِعْمَةَ الـ
وَلَقَدْ يُصَاحِبُنِي الشَّبَابُ فَلَمْ أَكُنْ
وَرَأَى الشَّبَابُ مَكَانَهُ فَتَجَنَّبَا
مِنْهُ هَرَبْتُ، فَلَمْ أَجِدْ لِي مَهْرَبَا
عَمْرَيْنِ هَمَّا شَاهِدَا وَمُعْيَبَا
آتِي بِهِ إِلَّا الفَعَالُ الأَصُوبَا

وَلَقَدْ حَفِظْتُ مَكَاتَهُ وَرَعَيْتُهُ وَجَعَلْتُهُ مِنِّي الْأَحَبَّ الْأَقْرَبَا (1)

إذ تفسح الأبيات عن هيمنة الذكرى على بنية النص الشعري، فقد جاء استخدام الشاعر للأفعال الماضية (نزل، رأى، هربت، بدلت، حفظت، رعيت، جعلته) دليلاً على ماضوية الأحداث، التي جعلت منه حدثاً سيرياً خالداً، ليجد نفسه مرتين بين زمنين مختلفين هما (زمن المشيب) ذلك الضيف البغيض الذي أصبح شاهداً على هموم الشاعر، و(زمن الشباب) الذي غيب صاحباً معه متعة العيش ولذته التي كان ينعم بها، وما بين الزمنين تكمن ذات الشاعر والذي حددها بـ (ذي العمرين) والتي عملت على استدار الذاكرة الواعية لذلك الصاحب والحبيب المقرب الذي حفظ مكانته ورعاه أبان فتوته وشبابه.

كما نجد الشاعر الجاهلي يبدي تحسره والمه على أيام فتوته وشبابه مجدداً ذكراهما:

أودى الشَّبَابُ، حَمِيداً ذُو النَّعَاجِبِ أودى وذلك شأؤ غير مطلوب

ولى حيثياً وهذا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ لو كان يدركه ركض العاقيب

أودى الشَّبَابُ الَّذِي مَجَّدَ عَوَاقِبُهُ فِيهِ تَلَذُّ وَلَا لَسَدَاتٍ لِلشَّيْبِ (2)

لقد جعل الشاعر من بنية النص الشعري حدثاً قائماً على الاستذكار من خلال تحشيده للأفعال الماضية (أودى، أودى، ولى، أودى) ليتمكن من عقد مقارنة بين ذات الشاعر في الزمن الماضي (الشباب) باستدعاء صور فتوته وشبابه وما يكتنفها من عيش سعيد يستلذ به ولحظات جميلة يستطيه ذكرها القابعة في المخيال الذاكراتي ونقيضته ذات الشاعر في الزمن الحاضر (المشيب) عندما حل به الضعف والعجز كوسيلة محايدة تبعث على التخلص من سقم الواقع.

ويستعيد الشعراء الفرسان ذكريات شبابهم ، لبعث أمجاد الماضي السعيد الممتلى بالبطولات والانتصارات في المعارك الحربية ،لمواجهة قوة الزمن التي عملت على تدمير سلاحهم والقضاء على قوتهم وشجاعتهم ، فيجدون انفسهم على اعتاب عمر اندثرت أيامه و انهكت قواه (3) . إذ يجعل الشاعر الجاهلي من خطابه للأخر مصدراً لأنثيال ذكريات الشجاعة والفروسية التي كان يتحلى الشاعر بها في سالف دهره:

تَهَزَّاتٌ عَرَسِيٌّ فِيهَا جَنْفٌ وَأُورَارٌ وَاسْتَنْكَرَتْ

لا تُكْثِرِي هُزْءاً، وَلَا تَعْجَبِي، فَلَيْسَ الشَّيْبُ عَلَى المَرءِ عَارٌ

عَمْرَكَ هَلْ تَدْرِيْنَ أَنْ الفَتَى شَبَابُهُ ثَوْبٌ عَلَيْهِ مَعَارٌ

وَلَا أَرَى مَالاً إِذَا لَمْ رَعْفٌ، وَخَطَارٌ، وَنَهْدٌ مَعَارٌ

يَكُنْ

مُسْتَشْرِفُ الفَطْرَيْنِ، عِبْلٌ للشَّوَى مُحَنَّبُ الرَّجُلَيْنِ، فِيهِ أَقْوَارٌ

فَذَاكَ عَصْرٌ قَدْ خَلَا وَالْفَتَى
لَا يَنْفَعُ الْهَارِبُ
تُلُوِي لِيَالِيهِ بِهِ النَّهَارُ
وَلَا يَنْجِي ذَا الْحَذَارِ الْحَذَارُ (1)

جعل الشاعر الجاهلي من الزمن الحاضر (زمن المشيب) نقطة الارتكاز التي انطلق منها النسق الذاكراتي على ((استرجاع صورة الماضي المفقود والعودة إلى ايام الشباب التي رسمت بطولاته وامجاده)) (2)، ليصطحب اعز الاشياء على قلب الفارس الرمح والسيف والفرس، التي هي رمز القوة والشجاعة والبطولة التي امتاز بها في عنفوان شبابه، ليؤدي معنى ذاكراتياً يتداخل مع الذكرى التي يريد ايصالها إلى الآخر) عرسه) بعد ان استسلم لسطوة الزمن وادرك رحيل الشباب.

كما يتخذ الشاعر الجاهلي من الذكرى وسيله للوقوف امام عبث العاذلة مفتخراً بفروسيته وبطولاته:

يَا هِنْدُ لَا تُكْرِي شَيْبِي وَلَا كِبْرِي
فَاهْمَتِي مِثْلَ حِدِّ الصَّارِمِ الذَّكْرِ
وَلِي جَنَانٌ شَدِيدٌ لَوْ لَقِيْتُ بِهِ
حَوَادِثَ الدَّهْرِ مَا جَارَتْ عَلَيَّ بِشْرِ
فَمَا تَوَهَّمْتُ أُنْبَى خُضْتُ مَعْرَكَةَ
إِلَّا تَرَكْتُ الدِّمَاءَ تَنْهَلُ كَالْمَطْرِ
كَمْ قَدْ عَرَكْتُ مَعَ الْأَيَّامِ نَائِبَةَ
حَتَّى عَرَفْتُ الْقَضَا الْجَارِي مَعَ الْقَدْرِ (3)

نجد بنية النص الشعري تحيل إلى الزمن الماضي المنزوي في اعماق ذاكرة الشاعر (زمن الفروسية والبطولة)، حيث جاء استدعائه نتيجة مثير خارجي تمثل بتنكر العاذلة له في الزمن الحاضر (زمن المشيب)، إذ نلتمس من خلال بوحه نبرة من الحزن يخفيها خلف خطابه وذلك لأن ((الرد على المرأة والانتصار للكرامة يعمقان من الاحساس بالفجيعة)) (4)، وبذلك غدت بنية النص ذكرى تستوعب جميع معاناته في الزمن الحاضر.

كما تثير الشيخوخة الاحساس بالعجز والضعف مما تؤثر سلبا على نفسية الشاعر الجاهلي، وتستدعيه لاسترجاع ذكريات شبابه التي شكلت ملاذاً اماناً تقيه من شرور الشيخوخة، فيتذكر متع الشباب ولذاته، ومن اهمها الخمرة من حيث وصفها ومجالسها وندمائها وسقاتها وكؤوسها احدى اهم المحطات التي يستعيد من خلالها مآثر شبابه (5). ومن ذلك ذكريات الشاعر الجاهلي مع الخمرة اثر بكاءه على شبابه الغارب ومتعه الماضية:

يا لهف نفسي على الشباب ولم
قد كنت في مئة أسراً بها
وأسحب الريط والبرود إلى
لا تغبط المرء أن يقال له:
أفقد به إذ فقدته أمماً
أمنع ضيمي وأهبط العصما
أدنى تجاري وأنفض اللمما
أمسى فلان لعمره حكماً(1)

إذ يشهد النص الشعري حركة ارتداد للذاكرة مضادة لحالة الأسى والفقد النابع من تجربة التحول والتغير (الشيخوخة) التي رافقت الشاعر في الوقت الحاضر وذلك لأن ((تجربة الشيخوخة الأليمة كثيراً ما تشد الذات البشرية في حدة وقوة ومرارة هيهات المفقود أن يعود)) (2)، فجاء إيراد الفعل (كنت) لتأكيد الزمن الماضي واضاءته اضاءة مشرقة عبر النسق الذاكراتي الذي عمل على ابتعاث متع الشباب وخاصة النشوة الحسية للخمرة في كل تفاصيلها أمام ناظره لمواساة ذاته المكلومة جراء مظاهر العجز والوهن التي اصابت جسده.

وقد عمد الشاعر الجاهلي إلى جعل النص يفيض بالذكريات الممتعة التي تنتشله من بؤس الواقع:

ولقد لهووت وللشباب لذذة
من خمّر ذي نطف أعن منطلق
يسعى بها ذو ثومتين مشمّر
قنات أنامله من الفرصاد(3)

من الواضح هيمنة الذكرى على مجمل النص الشعري، فقد اورد الشاعر (لقد) لتأكيد ماضوية الأحداث التي جعلت من النص حدثاً سيرياً ابتعثه الشاعر عن طريق استدرار الذاكرة الواعية لأيام اللهو واللذاعة التي كان ينعم بها في ريعان شبابه والمتمثلة باحتساء الخمرة وما يصاحبها من الاحساس بالغبطة والنشوة لينفس بها عن مشاعر الالم والاسى المكبوتة في اعماقه بسبب ادراكه مضي الشباب وامتعه التي لا يمكن للشيوخ الحصول عليها في كبره.

وللمرأة نصيب وافر في ذكرى الشيب والشباب ، فانصراف المرأة وما تبديه من نفور وصدود واستهزاء من الرجل الشائخ (الشاعر) يولد لديه شعور بالوحدة والاغتراب النفسي فيلجأ الى الماضي ليجدد ذكراه ويعيش احلام اليقظة(4). فنجد الشعراء العشاق اخذوا يسترجعون ذكريات علاقاتهم العاطفية، التي اججها الضيق النفسي والانفعال الشديدين عندما بدأت مواسم الهجر عند الحبيبات تزامننا مع ظهور علامات الكبر التي تفقدتهم صفة اللقاء والنشوة التي كانوا يستمتعون بها في شبابهم(5). حيث تتجلى

الذكرى بوضوح في نص الشاعر الجاهلي عند تصوير معاناته النفسية اثر رحيل محبوبته، حيث اصبحت بعيدة المنال لا سبيل لوصولها:

بَانتُ سَعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَا
وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كُنَّ الَّذِي نَكِرْتُ
قَدْ يَبْزُكُ الدَّهْرُ فِي خَلْقَاءِ رَاسِيَةٍ
بَانتُ وَقَدْ أَسَارَتْ فِي النَّفْسِ حَاجَتُهَا
وَاحْتَلَّتِ الْعَمْرَ فَالْجُدَيْنِ فَالْفَرَعَا
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا
وَهَيَا وَيُنْزَلُ مِنْهَا الْأَعْصَمَ الصَّدْعَا
بَعْدَ انْتِلَافٍ وَخَيْرُ الْوُدِّ مَا نَفَعَا(1)

إذ تكشف بنية النص عن قدرة الشاعر على توظيف الذاكرة للعودة إلى محطات شبابه الغارب واستقطاع لحظات الود والالفة بين الشاعر/ المرأة ، محاولاً الموازنة بين الحاضر (زمن الغياب) و الماضي (زمن الحضور)، باعتباره مصدر للطاقة الداخلية التي تعمل جسدياً وعاطفياً على تخفيف حدة التوتر الذي خلقه الحاضر وذلك بسبب عامل التغيير الزمني بدا واضحاً على معالمه (من الحوادث الا الشيب والصلعا) مما احدث شرخا عميقا في علاقته مع حبيبته لأن علاقة المرأة بالرجل مرهونه بالمكون الجمالي متى ما اختلت اجزاء هذا المكون صدمت وابتعدت.

كما نجد الشاعر الجاهلي يستذكر سني شبابه بحسرة والم لما لقيه من جفاء وصدود محبوبته بعد أن الم به الكبير:

قد أصبح الحبل من أسماء مصروم
واستبدلت خلة مني وقد علمت
عف صليب اذا ما جلبت أزممت
لما رأته أن شيب المرء شامله
صدمت وقالت: أرى شيباً تفرعه
بعد انتلافٍ وحب كان مكتوما
أن لن أبيت بوادي الخسف مذموما
من خير قومك موجودا ومعدوما
بعد الشباب وكان الشيب مذموما
ان الشباب الذي يعلو الجراثيما(2)

لقد جعل الشاعر من بنية النص استذكار لإحداث ماضية قابعة في مخياله الذاكراتي، فقد جاء استخدام الفعل الماضي (أصبح) للإشارة إلى التحول الزمني من الماضي إلى الحاضر والمستقبل، وقد تجسد ذلك التحول على صعيد علاقة (انا) الشاعر/ (الآخر) حبيبته، فيستعرض الشاعر صور حياتهما السابقة في مرحلة الشباب حيث الحب والوجد والوصال الخفي عن الانظار، ثم يعرج بعد ذلك ليصور ما اصابهم في مرحلة المشيب حيث النأي والبعد والجفاء عندما بدت عليه علامات الكبير، إذ اصبحت الذاكرة الشاهد الأول الذي يقف إلى جانب الشاعر في ايصال معاناته إلى الآخر.

اما الغواني فلهن دور بارز في استتارة ذكريات الشعراء الجاهليين يتمثل في العزوف والاعراض من علامات الشيب وذلك لان((الشيب سرعان ما يصدع... تلك التجاريب، فيفرض حضوره السالب في حياة المحبين))⁽³⁾، حيث يعمدون على استرجاع اعذب ذكريات الشباب الغارب من خلال حنينهم المتوقد

لمواصله الغواني. ومن ذلك ذكريات الشاعر الجاهلي التي استعادها نتيجة لصدود واعراض الغواني منه بعد أن بدت عليه سطوة الزمن:

وقال العذاري: إنما أنت عمنا
فأصبحت ما يعرفن إلا خليقتي
وكان الشَّبَابُ كالخَلِيْطِ نَزَائِلُهُ
وإلا سواد الرأس، والشَّيْبُ شامِلُهُ(1)

تشير دلالة النص أن الشاعر عمل على استمالة الذاكرة لاستدراج الحادثة الماضية في الوقت الحاضر وذلك للإفصاح عما يكابده من آلام وهموم أثقلت كاهله بفعل المشيب الذي ارسى قواعده في رأسه سالباً مظاهر الشباب التي تألفها النساء، فاستخدامه للفعل (اصبحت) جعله يعقد مقارنة بين زمنين مختلفين هما، ما كان عليه (الماضي) وما آل إليه (الحاضر)، وهذا الاستدكار يعد الوسيلة التي يبتغي الشاعر من خلالها الحصول على فسحة أمل تساعد على تجرع مرارة الواقع أثناء صراعه مع الزمن.

كما نجد الشاعر الجاهلي يحاول التغلب على صخب الحاضر بالاتكاء على مخزونه الذاكراتي:

وأرى الغواني حين شبت هجرني
إن الغواني لا يواصلن أمرًا
بل ليت شعري هل أعودن ناشئاً
إذ لمتمى سواداً أتبع ظلها
أن لا أكون لهنّ مثلي أمرداً
فقد الشباب وقد يصلن الأمرداً
مثلي زمين أحل برقة أنقدا
دذناً قعود غواية أجرى دذاً(2)

توحي بنية النص الشعري على استرجاع الشاعر لإحداث ماضية عالقة في الذاكرة، فقد جاء إيراد الفعل (ليت) لدلالته على انتهاء زمن معين يتمنى الشاعر عودته، وقد عمل النسق الذاكراتي على استرجاع حدث مغامراته مع الغواني عبر مجموعة من العناصر اشتركت في تكوينه وهي عنصر المكان (برقة ثمهدا) وعنصر الزمان (ناشئاً) والفاعل (الغواني) كوسيلة تساعد على تحمل عبء الواقع الذي القى على عاتقه بفعل الزمن.

أما العلاقات الزوجية فأخذت تتبدد بسبب الموقف السلبي الذي اتخذته الزوجات من الشيب حيث ابدن الضجر والنفور والتملل من وهن الرجل وعجزه، مما دعا الشعراء الى استرجاع ذكريات شبابهم للتغلب على الاحساس بالألم والحسرة حيال وضعهم الراهن(3). ومن ذلك ذكريات الشاعر الجاهلي التي استرجعها استرجعها عندما غضبت زوجته معلنه ازوارها ونفورها منه مطالبة بفراقه بعد أن اعتلاه المشيب:

تلك عرسي غضبي ثريد زيالي
إن يكن طيبك الفراق فلا أذ
أو يكن طيبك الدلال فأوف في
فدعي مط حاجبك وعيشي
زعمت أنني كبرت
أببين ثريد أم لدلال
قل أن تعطفي صنور الجمال
سالف الدهر والليالي الخوالي
معتنا بالرجاء والتأمال
قل مالي وضن عني الموال

وأني

لا يُـوَائِي أمْثَالُهَا أمْثَالِي
وَعَلَا الشَّيْبُ مَقْرِقِي وَقَدَالِيوَصَحَا بَاطِلِي وَأَصْبَحْتُ شَيْخَا
أَنْ رَأَيْتِي تَغَيَّرَ اللَّوْنُ

مِنِّي

وَدِ الرَّاتِكَاتِ تَحْتَ الرِّحَالِ
كُلُّ عَيْشٍ مَصِيرُهُ لِهَيْبَالِ(1)دَرَّ دُرُّ الشَّيْبَابِ وَالشَّعْرِ الأَسَدِ
ذَاكَ عَيْشٌ رَضِيئُهُ

وَتَوَلَّى

تشير دلالة النص الشعري على تقييده بزمنين مختلفين الدلالة، من خلال خطاب الشاعر إلى الآخر (عرسه)، في الزمن الحاضر نتيجة لإحساسه بالغربة والوحدة بسبب نظرة الاستهزاء والاشمئزاز التي ارتسمت على تعابير وجهها بعد أن اخواه الزمن مظهرًا علامات الكبر والعجز إذ أن ((المرأة كانت مرآة الشاعر الجاهلي فمن خلالها يرى آثار الزمن على نفسه))⁽²⁾، ثم يقوم بحركة ارتداد نحو الماضي إذ تعمل الذاكرة الواعية على جلب الحادثة الماضية سواد لمتة، حينما كان في عنفوان شبابه يزهو بالقوة والنشاط عندما يرحل بابله الناجيات في الوقت الحاضر عبر النسق الذاكراتي الذي يوازن النص كثنائية ضدية من خلال المقابلة بين حاضر/ ماضي ذات الشاعر.

وتأتي ذكريات الشاعر الجاهلي في سياق عتابه إلى الآخر (زوجته) عما صدر منها من نفور واستهزاء بعدما تقدم به العمر:

وَأَنْ أَحَى لِتَقَادِمِي ظَهْرِي
يَوْمَ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَسْرِي
وَالْمَرْءُ بَعْدَ تَمَامِهِ يَخْرِي
فِي ذَاكَ مِنْ عَجَبٍ وَلَا سَخْرٍ(3)هَزِنْتُ "أَمَامَةَ" أَنْ رَأْتُ هَرَمِي
مَنْ بَعْدَ مَا عَهْدْتُ فَأَدْلُقْنِي
حَتَّى كَأَنِّي حَابِلٌ قَنَصًا
لَا تَهْرُنِي مِنِّي "أَمَامًا" فَمَا

استطاع الشاعر بما يمتلك من مهارة فنية في توظيف الذاكرة لعمل تقابل بين الزمن الماضي/ الحاضر، من خلال استرجاعه لسيرته الماضية التي يكتنفها الود والمحبة في ظل حياة اسرية متكاتفه وبين تصوير سيرته الحاضرة التي يكتنفها الألم والوحدة في ظل حياة اسرية متفرقة والذي جسده التحول الزمني الذي أصابه من الهرم وانحناء الظهر، وبذلك تمكن الشاعر بوساطة الذكرى الواعية ان يسند نفسه امام جور الزمن الذي اخواه وقيد خطاه.

واخذت تربية الابناء ورعايتهم جانبا من ذكريات الشعراء الجاهليين في مشيبيهم، و التي جاءت نتيجة عقوق الابناء وما ترتب عليه من العصيان والمخالفة والتعنيف والجفاء التي حذت الالباء بالتوجه الى

الماضي والعودة بأجمل أيام الشباب التي انقضت في رعايتهم وعنايتهم لا بناءهم⁽¹⁾. إذ يعود الشاعر الجاهلي الى رحاب الماضي العالق في ذاكرته من خلال حوار له مع الآخر/ ولده معاتباً عقوقه له:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت
كأني انا المطروق دونك بالذي
تخاف الردى نفسي عليك واني
فلما بلغت السن والغاية التي
جعلت جزائي غلظة وفظاظة
فأينتك إذ لم ترع حق ابوتي
زعمت باني قد كبرت وعبتني
وسميتني باسم المفتد رأيه
تراقب مني عشرة او تنالها
وانك إذ تبقي لجامي موانلاً
وما صولة الحق الضئيل وخطره
تراه معدداً للخلاف كأنه
ولكن من لا يلق امرأ ينوبه

تعل بما أحنى عليك وتنهل
شكواك الأ ساهراً أتململ
طرقت به دوني فعيناي تهمل
لأعلم ان الموت حتم موجب
اليها مدى ما كنت فيك أو مل
كأنك انت المنعم المتفضل
فعلت كما الجار المجاور يفعل
ولم يمض لي في السن ستون كمل
وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل
هبلت وهذا منك رأي مضل
برأيك شاباً مرة لمغفل
إذا خطرت يوماً قساور بزل
بردي على اهل الصواب موكل
بعده ينزل به وهو اعزل⁽²⁾

جعل الشاعر من بنية النص الشعري بؤرة بنائية متضمنه عدة انساق ذاكراته منها نسق المؤونة ونسق الاعالة ونسق الاعياء عند المرض ونسق الخوف والقلق ونسق البكاء حيث اندمجت هذه الانساق فيما بينها مشكلة بنية الذكرى داخل النص الشعري وقد تجلت من خلال خطابه الى الآخر بعد أن حدد موقعه الزمني بـ (لم يمض لي في السن ستون كمل)، وجاء ذلك كمحاولة لترميم الصدع النفسي المكبوت في اعماقه بعد ان خابت اماله وتبددت احلامه في ان يراه شاباً يمد له يد العون ويبره في كبره، لا ان يقابله بقسوة وغلظة وتفنيد.

ولا نمضي بعيدا حتى نجد شاعرة جاهلية تشكو من الآخر/ ابنها عقوقه لها ففتنت معاناتها وذكرياتها في ارجاء النص:

رَبِّيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ
حَتَّى إِذَا أَصَّ كَالْفَحَّالِ شَدَّبَهُ
أَنْشَأَ يَمْرُقُ أَشْوَابِي يُؤَدِّبُنِي
إِنِّي لِأَبْصُرُ فِي تَرْجِيلِ لَمَّتِهِ
قَالَتْ لَهُ عَرْسُهُ يَوْمًا لِتَسْمِعَنِي
وَأَسُو رَأْتِي فِي نَارٍ مُسَعَّرَةٍ

أَمِ الطَّعَامِ تَرَى فِي جُلْدِهِ زَعِيَا
أَبَارُهُ وَنَفَى عَنِ مَثْنِهِ الْكَرْبَا
أَبَعْدَ شَيْبِي عِنْدِي تَبْنَعِي الْأَدْبَا
وَخَطِّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجْبَا
مَهْلًا فَإِن لَنَا فِي أَمْنَا أَرْبَا
مِنَ الْجَحِيمِ لَرَأَدَتْ فَوْقَهَا حَطْبَا⁽³⁾

لقد وفقت الشاعرة الجاهلية في توظيف الذاكرة لعمل تقابل بين الانا / الآخر، عن طريق استرجاعها لصورة رعايتها وعنايتها له عندما كان صغيراً لا يقوى على عمل شيء كالفرخ ((في ضعفه وصغره وتساقط قوته وتخلخل بنيته ورخاوة مفاصله))⁽¹⁾، وبين العقوق الذي قبلت به من ابنها وزوجته بعد أن اشتد عوده واستوى، وهذا بدوره جعل النص مقترن بزمنين هما الشباب/ المشيب يجتر احدهما الآخر بوساطة الذكرى الواعية المنزوية في اعماق الذاكرة، للتنفيس عن الالم والاسى الذي اختلج في جوانحها بسبب الاساءة التي تعرضت لها.

الخاتمة

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث :
من ذلك نجد ذكريات الشيب والشباب لم تأت على شاكلة واحدة وانما تعددت بتعدد المواقف التي تعرض لها الشعراء الجاهليين والتي اثارت في مكامن نفوسهم الالم والحزن مما حذاهم الى استرجاع ذكريات شبابهم الراحل بما فيها من قوة ومتعة والفه ومحبة متمنين عودة تلك الايام لتكون عكاظهم الذي يتكؤون عليه بعد ان داهمهم المشيب بضعفه وعجزه حيث فرق شملهم وبدد قوتهم، ((اذ تبقى الذكريات في مناطق من الظلام يكشفها الضوء في صورة منقطعة، فالماضي هو في جوهره عاجز بطلت فائدته واستنفذ امكانياته وانحصر اثره في مدى انعكاسه على الحاضر))⁽²⁾.

الهوامش

- (1) الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، د. حسني عبد الجليل يوسف: 379.
- (2) سورة الروم، الآية: 54.
- (3) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: 2/ 361.
- (4) الأدب في العصر العباسي (خصائص الاسلوب في شعر ابن الرومي)، شعيب محيي الدين، سليمان فتوح: 162.
- (5) ديوان ذي الاصبع العدواني 33_34. المناغاة: المكاملة والمغازلة . البراجم: واحدها : برجمة بضم الباء والحيم، وهي مفاصل الاصابع من ظاهر الكف .
- (6) أمالي المرتضى، للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي: 233. والنص للشاعر الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد بن أدد المذحجي، شاعر جاهلي معمر، ينظر: .
- (7) أمالي المرتضى: 255_256. ثوى: اطال الإقامة، عصر: دهور، الوطر: الحاجة، نفر: شرد. والنص للشاعر الربيع بن ضبع بن بغيض الفزاري الذبياني، من الشعراء المعمرين، ومن الحكماء الفرسان، ينظر: موسوعة الشعراء الجاهليين: 120.

- (8) ينظر: الزمان والمكان في الشعر الجاهلي : باديس فوغالي، 147.
- (9) الشباب والشيب في الشعر الأندلسي، رغبة علي زبون، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد42، العدد1، 2015: 214.
- (10) ديوان عدي بن زيد: 113. العصرة: المنجاة والملجأ.
- (11) ديوان سلامة بن جنبل 88- 91. اودي: اودي الشيء يؤدي اذا هلك. شاو: السيق والطلق. اليعاقب: جمع يعقوب وهو ذكر القبج.
- (12) ينظر : قصيدة المدح الاندلسية، فيروز موسري: 73.
- (13) ديوان المثقب العبيدي: 274- 275.
- (14) البواعث النفسية في شعر فرسان ما قبل الإسلام "رسالة ماجستير"، ليلي نعيم عطية الخفاجي، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1423هـ- 2002م : 101.
- (15) ديوان دريد بن الصمة: 98.
- (16) الغربية في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق الخشروم: 272.
- (17) ينظر : الخمر في الحياة الجاهلية وفي الشعر الجاهلي " رسالة ماجستير" بادية حسين حيدر، الجامعة الأمريكية في بيروت، 1986: 112.
- (18) ديوان عمرو بن قمينة: 40- 41.
- (19) مشكلة الإنسان، د. زكريا ابراهيم: 76.
- (20) ديوان الاسود بن يعفر: 29.
- (21) ينظر: الأدب الجاهلي قضايا ونصوص وفنون: 359.
- (22) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، احمد على الفلاحي: 145- 146.
- (23) ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس: 137.
- (24) ديوان الاسود بن يعفر: 59- 60.
- (25) جماليات التحليل الثقافي، القصيدة الجاهلية نموذجاً، د. يوسف عليمات: 173.
- (26) ديوان زهير بن أبي سلمى: 88.
- (27) ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس:.
- (28) ينظر: الاسرة في الشعر الجاهلي " رسالة ماجستير" ماهر أحمد المبيضين، جامعة مؤتة، كلية الآداب، 1995: 36.
- (29) ديوان عبيد بن الأبرص: 96- 99.
- (30) مقالات في شعر الجاهلية و صدر الإسلام، د. عدنان أحمد: 45.
- (31) الحماسة لأبي عبادة البحتري: 420.
- (32) ينظر : عقوق الوالدين في الشعر العربي القديم، د. حفيظة اسماعيل، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، المجلد 626، العدد 26: 934.

- (33) ديوان امية بن أبي الصلت: 45- 46.
(34) حماسة أبي تمام: 1/ 365.
(35) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: 537- 538.
(36) لحظة الابدية، سمير الحاج شاهين: 74.

المصادر

- الأدب الجاهلي قضايا ونصوص وفنون، ا. د. حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2421هـ- 2001م.
- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي المتوفي (328هـ) ، ت. د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج/2.
- الأدب في العصر العباسي (خصائص الأسلوب عند ابن الرومي) ، شعيب محيي الدين، سليمان فتوح، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ط1، 2004.
- ديوان ذي الأصبغ العدواني، ت عبد الوهاب محمد علي العدواني، محمد نائف الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل ، 1393هـ- 1973م.
- امالي المرتضى، للشريف علي بن الحسين الموسوي العلوي (355- 436هـ) ت محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، ط1، ج/ 1، 1373هـ- 1954م.
- الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، د. باديس فوغالي، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان- الاردن، ط1، 1429هـ- 2008م.
- الشباب والشيب في الشعر الاندلسي، رغبة علي زبون، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد42، العدد1، 2015م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي، ت محمد جبار المعبيد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1385هـ- 1965م.
- ديوان سلامة بن جندل، ت. د فخر الدين قباوه، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1
- قصيدة المدح الاندلسية، د. فيروز موسري، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009م.
- ديوان المثقب العبدى، ت حسن كامل الصيرافي، 1393هـ- 1971م.
- البواعث النفسية في شعر فرسان ما قبل الإسلام "رسالة ماجستير"، ليلي نعيم عطية الخفاجي، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1423هـ- 2002م : 101.
- ديوان دريد بن الصمة، ت. د عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة.
- الغربية في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق الخشروم، منشورا اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982.
- ينظر : الخمر في الحياة الجاهلية وفي الشعر الجاهلي " رسالة ماجستير" بادية حسين حيدر، الجامعة الامريكية في بيروت، 1986: 112.
- ديوان عمرو بن قميئة، ت. د خليل ابراهيم العطية، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط2، 1994م.
- مشكلة الإنسان، د. زكريا ابراهيم، دار مصر للطباعة.
- ديوان الأسود بن يعفر، د. نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة التراث15.

- الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، د. أحمد علي الفلاحي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، 1434هـ- 2013م،
- ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.
- جماليات التحليل الثقافي القصيدة الجاهلية نموذجاً، د. يوسف عليّات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ط1، 2004.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط2، 1462هـ- 2005م.
- ينظر: الاسرة في الشعر الجاهلي" رسالة ماجستير" ماهر أحمد المبيضين، جامعة مؤتة، كلية الآداب، 1995: 36.
- ديوان عبيد بن الأبرص، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1414هـ- 1994م.
- مقالات في شعر الجاهلية والإسلام ، د. عدنان أحمد، دار المركز الثقافي للطباعة، دمشق، ط1، 2007 م.
- الحماسة لأبي عبادة البحرني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1420هـ- 1999م.
- نظر : عقوق الوالدين في الشعر العربي القديم، د. حفيظة اسماعيل، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، المجلد 626، العدد 26: 934.
- ديوان امية بن أبي الصلت، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1352هـ، 1935م.
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي المتوفي (421هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2003م.
- لحظة الأبدية، سمير الحاج شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980م.

